بين اليأس والرجاء

للأستاذ احمد أمين

صوتان لابد أن يرتفعا فى كل أمة ، ويجب أن يتوازنا حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، صوت يبين عيوب الأمة فى رفق وهوادة ، و يستحث على التخلص منها والتحرر من قيودها ، وصوت يظهر محاسنها ويشجع على الاحتفاظ بها والاستزادة منها . والصوتان معا إذا اعتدلا كونا موسيقى جميلة منسقة تحدو الأمة الى السير إلى الأمام دائما ، هى موسيقى الجيش تبعث الرجاء والأمل ، وتمنى بالنصر والظفر ، فان بغى أحد الصوتين كانت موسيقى مضطربة تهوش النفس وتدعو إلى الفوضى والارتباك ، وإذا كان « الدور » فى الموسيقى يكون منسجما كله ، ويشذ أحد أصواته لحظة فيكون « نشازا » يخدش السمع ويجرح النفس ، فما ظنك « بدور » كله « نشاز » ؟

* * *

مما يدعو إلى الأسف أن صوتا فى الشرق علا كل صوت ، وهو ليس خير الأصوات واحبها إلى النفس ، هو صوت اليأس والتثبيط يتغنى به كل أصناف الدعاة ، فخطيب المسجد تدور خطبته دائما على أن من يخطبهم ليسوا مؤمنين حقاً ، فقد ارتكبوا من الأوزار ، واجترموا من الآثام ما أخرجهم عن الأيمان الحق ، وأبعدهم عن الدين الصحيح ، ولو آخذهم الله بأعمالهم لأمطرهم حجارة من السماء ، أو خسف بهم الأرض ، ثم يصب هذا المعنى كل أسبوع فى قالب ، وكل القوالب تختلف أشكالها ، ويتحد معناها ، ويخرج السامع دائما وقد ملأه اليأس ، وانقطع به الرجاء ، الا أن يتداركه الله بعفو ليس جزاء على عمل .

ودعاة اللغة والأدب يلحون فى أن اللغات الأجنبية خير من اللغة العربية ، وأن الأدب الأجنبى أدب الثقافة والفن والعلم ، ولا شيء من ذلك فى الأدب العربى ، وأن من شاء أن يفتح عينيه فليفتحهما على أدب أجنبى ولغة أجنبية ، وإلا ظل أعمى ، وموجز دعوتهم أن يتحول الشرق فى لغته وأدبه إلى الغرب فى لغته وأدبه ، لا ان يختار من لغة الغرب وأدب الغرب ما تلقح به لغة العرب وأدب العرب .

ودعاة الاجتماع أدهى وأمر ، فليس فى الشرق كله مايسر ، قد جرده الله من كل حسن ، فلا طبيعته جميلة ولا مناظره جذابة ، ولا شيء فيه يأخذ باللب ويدعو إلى الأعجاب ، والقمر فى الغرب أنور منه فى الشرق ، والبحر الأبيض قد جمل منه ما لامس الغرب ، وقبح مالامس الشرق ، وكل شيء فى عادات الشرق وتقاليده تعافها النفس ، وينفر منها الطبع ، وعلى الجملة فالله تعالى الواهب ماشاء لمن شاء قد جمع الحسن كله فى ناحية ، وقال له كن الغرب فكان ، وجمع القبح كله فى ناحية وقال له كن الشرق فكان . وهم اذا لم يقولوا ذلك كله جهارا آمنوا به ايمانا ، وصدرت عنه أفعالهم ، واتجهت اليه حياتهم .

ودعاة العلم من هذا الطراز ، فكتب العلم العربى انما تصلح لدارس التاريخ أو طعمة للنار ، وماذا فيها إلا تخريف أو تحريف ، قد كانت نتاج القرون الوسطى ، ونحن نتاج العصر الحديث ـ ومالى وللسياسة ودعاتها فلأهربن منها اتقاء لنارها ـ ومجالسنا صدى لهذا الصوت ، فاذا استثنيت عُشر معشارها فكلها نقد للأخلاق ، وطعن فى حياة الشرق ، وتهجم على حال أمتهم ، وتجهم لكل ما يصدر منهم . وقل أن تسمع صوتا ينطق بمدح أو يعجب ببطولة ، أو يتغنى بعمل مجيد .

هذه نغمة مملولة كانت أجنى على الشرق من كل عيوبه ، ولن تفلح أمة من غير ذخيرة تعتز بها ، ومجد طارف وتليد تعتد به ، ونعرة قومية تدعوها الى الفخر والاعجاب . ولأمر ما قال تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وليس عبثا أن يكون فى أناشيد الألمان « ألمانيا فوق الجميع » وأن يعتقد بعض الأمم فى أنفسهم أنهم شعب الله المختار ، ونحو هذا مما ينعش الأمل ، ويدعو الى العمل .

تلك ظاهرة نفسية لا مجال لأنكارها ، فاعتقد الغباوة فى طفلك وكرر عليه اعتقادك تقتل كل مافيه من ذكاء ، واعلن أنه ذكى وشجعه على مايبدر منه من ضروب الذكاء تستخرج أقصى ماعنده من عقل . وفى المثل الانجليزى « دَعوا الكلب

عقوراً فشنق » يعنون أنهم اعتقدوا فى كلب سوءاً وسموه عقوراً وظلوا يطلقون عليه هذا الاسم حتى صدر منه من أفعال السوء ما استوجب قتـــله ، وفى أمثالنا العامية « قالوا للفلاح ياحرامى شرشر منجله » ذلك أن الاتهام يحمل على ارتكاب الجريمة من ناحيتين : من ناحية الايعاز ، فمن اتهمته فقد أوعزت اليه واقترحت عليه العمل ، وأظهرت له الجريمة ماثلة أمام عينه حينا بعد حين ـ ومن ناحية أن أكبر ما كان يمنعه من الشر خوفه أن يتهم بالشر ، فاذا اتهمته فقد كان مايخشاه ، وأقدم على ما كان يتحاماه ، هذا الى مايوحيه الاتهام الدائم من شعور باطنى يسيره نحو العمل وفق الاتهام ، وهذا هو السر فى أن بعض قوانين تسن لمعاقبة بعض أنواع الأجرام فتكون سببا لكثرة الأجرام ، ثم ترفع فيقل الأجرام ، لأن وجود القوانين كان موعزا بارتكابها ـ ولعل أنواعا من الآثام زادت بكثرة الكلام فيها من جهلة الوعاظ ممن لم يحسنوا دراسة النفوس وقوانينها

إذا سقط الفتى فأريته أن سقطته قابلة للعلاج ، وأخذت بيده لانتشاله ، كفر عن سقطته وعاد الى حاله ، وان أنت أريته أن سقطته لا تغتفر ، وأنه لم يصبح انسانا استمر يسقط أبداً ـ وكثـــير من الساقطين والساقطات لو أحسوا فى الناس استعداداً لقبولهم ، وشعروا أنهم يفسحون لهم فى صدورهم لعدلوا عن سقطتهم ، ونهضوا من عثرتهم .

* * *

وبعد فليس الشرق ، بدعا من الخلق ، إن اعتز أحد بماض فليس أمجد من ماضيه ، وان كان لكل أمة غربية محاسن ومساو فللشرق محاسنه ومساويه ، وإن كانت مساوى الغرب لم تمنعه من نهوضه فلمَ تمنع الشرق مساويه من نهوضه ؟ ليس أعوق للشرق من هذا الصوت الكريه يصدر من دعاته فيبعث اليأس وينفث السم .

أيها الدعاة : كسروا قيثارتكم هذه التى لا توقع إلا نغمة واحدة بغيضة ، واستبدلوا بها قيثارة ذات ألحان صنعها طبٌّ بأدواء النفوس عليم ، واكثروا من ألحان تبعث الأمل ، وتدعو الى العمل ، وتزيد الحياة قوة ، ولا تشهروا برذيلة الا اذا أشدتم بفضيلة ، ولا تسمعونا صوت المعاول ، الا اذا أريتمونا حجر البناء ؟

ستـــانلى باى !

لأســتاذ كبير

لم يشأ أن يتعرف لقرائنـــا اليوم

نعم هو ستانلى باى الذى تكتب عنه الآن الجرائد اليومية كل يوم . والذى تكتب عنه المجلات الأسبوعية كل أسبوع . . .

فما للرسالة لا تساهم فى حديثه وقد أصبح حديث جميع من فى مصر . . ؟

أفليس هو الذى يزوره (الأستاذ الصاوى) فيتكلم عنه فى (الأهرام) يومين متتاليين ؟

أليس هو السر فى (قطر الندى) كما يسميه أهل الاسكندرية الظرفاء . وهو نفس مايسميه مدير السكة الحديدية (قطار البحر) ؟

أليس هو الذى حرمته القاهرة فقـــام فنانوها من مديرى المسارح والصالات ينقلون مشاهده الى مسارح القاهرة ؟

أليس هو الذى يشغل بال حكمدار بوليس الاسكندرية ورئيس نيابة الاسكندرية ؟

ثم أليس هو الذى استلفت أخيراً نظر رجال الدين ، على رغم ماهم آخذون فيه من توزيع (الطوابع) الجديدة التى ابتكروها لاسترداد هيبة الأسلام واعلاء كلمة الدين ؟ !

إن الرسالة وقد جعلت مهمتها أن تقاوم حيرة الأمة بتوضيح الطريق كما جاء فى عهدها ، لا تستطيع أن تفتك من قيود التحدث الى الأمة فى هذا الموضوع الذى يشغل الدنيا والدين على السواء !

ولقد كان من حق قراء (الرسالة) أن ينتظروا كلمة من بعض أقلامها المعهودة أو تعليقا من حامل شعلتها الوضاءة . ولكن يخيل إلينا أن هـذه الأقلام قد استراح كل منها الى موضوع فهو لا يفتأ يتقلب فيه ، وقد استقل كل منها ببحث فهو لا ينفك يجول فى حواشيه ، فالدكتور عزام مثلا فى محمد اقبال وعبد الحق حامد وناءق كمال . والأستاذ العبادى مابين زرياب وعمر بن عبد العزيز . والأستاذ أمين أخيرا فى عكاظ والمربد . والدكتور طه أخيراً أيضا فى لغو الصيف ما بين مصر وما وراء مصر . . . ولكن لا عن طريق ستانلى باى والسلام !

فلم يبق بعد ذلك الا أن يتقدم الفضوليون الذين لا يريحون ولا يستريحون . وإنى أعوذ بالله ـ وأنا أثير هذا الموضوع ـ أن أكون أحد هؤلاء . . .

obeikandl.com